مقدمة

على خلاف باقي العلوم فإنّ الدارس للفلسفة لا يمكنه أخذ فكرة عنها من خلال تعريفها في البداية، والاكتفاء بهذا التعريف دون الولوج إليها من الداخل؛ من خلال ظروف نشأتها، وكذا تطورها من حقبة زمانية ومكانية لحقبة أخرى، فكل اجابة فلسفية ارتبطت بسؤال محدّد، فمن المستحيل فك أي عقدة دون الإحاطة بها: "إنّ من يبحث دون أن يطرح المشكل أوّلا، شبيه بمن يمشي دون أنْ يعرف إلى أين هو ذاهب، بل ويصبح معرّضاً إلى أنْ لا يعرف ما إذا كان قد عثر على المطلوب أم"[1]

على هذا الأساس ما هي الظروف التي نشأت فيها الفلسفة ؟ ما هي خصائص التفكير الفلسفي في فترة ظهوره ؟ وماهي بواعث التفلسف ؟

الفلسفة والحضارات الشرقية

قبل الحديث عن الفلسفة في بلاد اليونان، –باعتبارها المهد الذي نشأت وترعرعت فيه– من الضروري الإشارة إلى محطة هامة سبقت المرحلة اليونانية لخّصها شارل فرنر في كتابه "الفلسفة اليونانية" قائلا "أنّ اليونانيون كانوا يدركون جيدا فضل حكمة الشرق عليهم. وكانوا يتحدثون باحترام كبير عن العلوم والحضارات الشرقية". والفكرة نفسها تقريبا أشار إليها المستشرق الفرنسي "بول ماسون أورسيل" في مقدمة كتاب "الفلسفة في الشرق" "لم يكن التفكير في الغرب، وفي أي فترة تاريخية، منعزلا عن بقية أنحاء العالم، وقد آن الأوان لكي نضع حدا لاعتبارنا أنّ الحضارات (الهند–أوروبية) غريبة بعضها عن بعض وفي مقدمتها الحضارتين اليونانية والهندية"

ويظهر التأثير الشرقي على الخصوص في النظريات الدينية والأساطير المنتشرة في بلاد فارس والهند، والتي استوعبها اليونانيون، وظل الفكر اليوناني مكبلا بها مدة قرون ليتجاوزها فيما بعد، ويتخلّص شيئا فشيئا من العناصر الأسطورية والدينية ويصل بالفلسفة إلى أوجها.

الفلسفة في المرحلة اليونانية وعوامل ظهورها:

لقد انطلق العقل اليوناني في نشاطه من خلال التفكير الأسطوري، القائم على الخرافات، والارتباط الروحي الوثيق بين الأحداث وقرارات الآلهة، هذه الأخيرة قد تكون بشرية ممثّلة في أشخاص، أو مادية كالكواكب والأشجار والمياه... وقد أسند لهذه الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الانسان.

إلا أنّ العقل اليوناني تحرر لاحقا من سلطة هذه الذهنية السحرية، انطلاقا من التفكير في أصل الكون، مرورا بالبحث في مصدر الحقيقة، فاتحا بذلك أبواب التفلسف الراقي. وكان هذا تحت تأثير العوامل الآتية:

[1]- Aristote, Métaphysique.

أولا– الظروف الاقتصادية للمجتمع اليوناني والتي كانت نتيجة للتقسيم الطبقي، القائم على نظام الانتاج العبودي، ممّا أفرز فئة اجتماعية متحرّرة من قيود الحاجة، وكان لها مُتَّسَعا من الوقت للعمل الذهني بما فيه الفلسفة.

ثانيا– عوامل سياسية تتمثّل على الخصوص في المدينة اليونانية؛ فالنظام السياسي اليوناني القائم على فكرة الديمقراطية، والتي تضمن للأفراد حق المساواة أمام القانون من جهة، وكذا حرية التفكير والتعبير من جهة ثانية. فالبيئة القائمة على الحرية هي البيئة المؤهلة أكثر لنشأة التفلسف، يقول هيغل "ظهور الفلسفة سيتوجب الوعي بالحرية، والشعب الذي تبدأ فيه الفلسفة يجب أنْ يعتمد الحرية كمبدأ له، وذلك مرتبط عمليا بازدهار الحرية الحقيقية ، ألا وهي الحرية السياسية".

<u>بذور التفلسف مع سقراط</u>: تعتبر مرحلة سقراط محطة هامّة في تغيير مجرى التفكير نحو الانسان، باعتباره المدار الجوهري لكل تفكير فلسفي، رافعا شعار "اعرف نفسك بنفسك"، وقد اقترنت مرحلة سقراط بازدهار النزعة السفسطائية. لقد كانت السفسطة تتمثّل أساسا في ممارسة الخطاب، والذي يتطلّب في نجاحه فنّ البلاغة وسحر الكلام لإقناع الخصم بالفكرة مهما كانت على حساب المنطق والعقل. لقد اصطدم الفيلسوف اليوناني –وعلى الخصوص سقراط، ومن بعده أفلاطون وأرسطو بالفكر السفسطائي من جهة، وبالموقف العامي من جهة أخرى، فهذا الأخير لا يقِلّ خطورة عن الأول، فهو المكتفي بذاته، الواثق من نفسه والمقتنع بحقيقته.

في صراع الفيلسوف اليوناني على هاتين الجبهتين تظهر خصوصية التفكير الفلسفي كمحاولة لتخطي ملابسات الحياة اليومية إلى أمر أكثر قيمة. على هذا الأساس فالفلسفة عموما هي عملية تأمّل فكري وبحث منهجي مُنَظّم في طبيعة الموجودات.

<u>أرسطو والفلسفة</u>: يعتبر أرسطو أنّ دواعي التفلسف تكمن في طبيعة الإنسان في حدّ ذاته، فهو يسعى دوما لمعرفة كلّ ما يحيط به، لكن كثيرا ما يقف مندهشا أمام عجزه عن ايجاد تفسيرات مُقْنِعة لِما يدور حوله من ظواهر، على هذا الأساس يَعتبِر أرسطو أنّ الدهشة هي المنطلق الأول نحو التفكير "إنّ الدهشة هي التي دفعت بالمفكرين الأوائل كما هو الأمر اليوم إلى النظر الفلسفي. في البداية انصبّت دهشتهم على الصعوبات التي مثلت في الذهن. ثمّ أنّهم بتقدّمهم على هذا النحو شيئا فشيئا سحبوا استطلاعاتهم على مشكلات أهمّ مثل الظواهر المتّصلة بالقمر وبالنجوم، وصولا إلى نشأة الكون. غير أنّ المرء الذي يتبيّن صعوبة، ويندهش لها إنّما يعترف بجهله الخاص (لذلك حتى حبّ الأساطير كان من جهة ما، حبّاً للحكمة، فالأسطورة نسيج من العجائب)"[1].

[1]- أرسطو: ما بعد الطبيعة.

إنّ أكثر ما يجمع الفلاسفة على اختلاف مشاربهم هو محاولة تجاوز قيود العادات التي تكبّل تفكيرهم، ومن سيطرة الظواهر التي تحدّ من رؤيتهم. وهذه المحاولة تبرز سواء عند سقراط في طريقة التوليد، أو عند أفلاطون في محاولة سجين أسطورة الكهف التحرر من ظلمات الجهل والعالم الحسي، أو عند أرسطو في التأسيس لعلم المنطق، أو عند الغزالي وديكارت في شكهما المنهجي في المعارف والمعتقدات القائمة بغية التأسيس لواقع معرفي جديد.

<u>في ضرورة الفلسفة</u>

- لا يمكن الفصل بين نشأة الفلسفة وضرورتها، فنفس دواعي بداية التفلسف كما ذكرها أرسطو، يُعيدها برتراند راسل في حديثه عن مزايا الفلسفة، مع بعض الدوافع الجديدة المرتبطة بتطوّر العلم "إن أهمية الفلسفة متأتية من كونها تشد أنفسنا، أو إنْ شئت يقظتنا الفكرية، لأنّ هناك قضايا خطيرة في الحياة، لا يستطيع العلم أن يعالجها، وأن يقول فيها كلمته، ولأنّ الرأي العلمي(...) ليس هو الرأي المناسب لتلك القضايا".[1]
- وبعد التطور العلمي المذهل أصبح دور الفلسفة أكثر من ضروري، فهي تعلّمنا التواضع الفكري، وبها تأكّدنا أن هناك مواضيع كانت في الماضي لا ريب فيها، ولكن تبيَّن فيما بعد أنّ ذلك اليقين العلمي خطأ فادح. "إن اليقين العلمي لا يمكن أن نصل إليه عبر الطرق القصيرة، وبالوسائل المبتورة، إنّ الناس بدأوا يكتشفون أنّ عملية فهم العالم ليست سهلة، وهذه العملية هي الرسالة الأولى التي تهدف إليها الفلسفة، وسواء أردنا أنْ نستعمل العلم أو الفلسفة لهذا الفهم، فانه لا مناص لنا مِن أنْ نستغرق وقتا طويلا، وأنْ نتسلّح بفكر يبتعد عن روح اليقين والتصديق المتسرع"[2].
- في نفس السياق يعتبر الدكتور محمد عبد الرحمان مرحبا بأنّ الفلسفة ملتصقة بالكينونة الانسانية، إنّها أسلوب حياة، بها نسير في أفعالنا، ونواجه الحياة والطبيعة، ونسلك مع أصدقائنا وأعدائنا، وتتحدد ارتباطاتنا وعلاقاتنا مع الأشياء والمجتمع: "الفلسفة بمعناها الواسع غير منفصلة عن الحياة، بل هي متصلة بها متفاعلة معها لا تنقطع عن التأثير فيها والتأثر بها، وإن الاهتمام بها هو من قبيل الاهتمام بالحياة وبالوجود الإنساني وبمصيره، فلئن كانت الفلسفة نظرة إجمالية إلى الكون وموقفا فكريا معينا من الحياة وتجاربها، فإنّ هذه النظرة الإجمالية وهذا الموقف الفكري يؤثران بطبيعة الحال في تصرفاتنا وأعمالنا وفي معالجتها للحوادث وتوجيهنا لها"[3].

---

[1]- - برتراند راسل- (الفلسفة بنظرة علمية)

[2] - المرجع نفسه.

[3] د/ محمد عبد الرحمن مرحبا من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية.

صلة الفلسفة بالعلوم والمعارف

أ- صلتها بالدين عند المسلمين

لقد تمّ رفض الفلسفة في البداية من قِبَل العامة، وكذا بعض الفقهاء، وهذا نظرا لجملة من الأسباب على رأسها أولا المصدر اليوناني لنشأة الفلسفة، كما أنّ الإيمان يغنينا عن استعمال العقل. هذا الاتجاه لخصه ابن الصلاح قائلا: "الفلسفة شر"[1].

بالمقابل، فقد كان الردّ واضحا من قِبَل ابن رشد "إنّ الغرض من هذا القول أن نفحص، على جهة النظر الشرعي، هل النظر في الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع ؟ أم محضور ؟ (...) فنقول: إنْ كان فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر من النّظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع، أعني من جهة ما هي مصنوعات، فإنّ الموجودات إنّما تدلّ على الصانع بمعرفة صنعتها، وأنّه كلما كانت المعرفة بصَنْعَتها أتمّ، كانت المعرفة بالصانع أتم".

وإذا تمعنّا في القرآن والسنّة لا نجد فيهما فلسفة، ولكن فيهما توجهات تدعو للتفلسف، وهو ما يعزّز موقف ابن رشد الداعم للفلسفة سواء من كتاب الله، كقوله تعالى: "فاعتبروا يا أولى الأبصار"[2]. "أوَ لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء".[3] وكذا في السنّة النبوية "الحكمة ضالّة المؤمن، حيث وجدها فهو أحقّ بها".[4]

على هذا الأساس فالعلاقة تكاملية بين الدين من جهة، والفكر الفلسفي القائم على العقل من جهة ثانية: إنّ هناك العديد من الآيات القرآنية التي تتطلّب التأويل العقلي، وإلا كان تفسيرها في غير محله كقوله تعالى "بل يداه مبسوطتان".[5] فشتان بين الايمان القائم على العقل والايمان الذي مصدره العادة. بالمقابل فالعقل البشري في حاجة لضوابط شرعية يمليها الدين وإلا وقع في الكفر والزندقة.

وخلاصة فمن الضروري تحصين العقل بالإيمان، وتعميق هذا الإيمان بالعقل، سيّما إذا تعلّق الأمر بالتأمّل في الغيبيات، وفي مبدأ عقيدة التوحيد على وجه الخصوص.

---

[1]- ابن الصلاح: فتاوى ومسائل في التفسير والحديث والأصول والفقه.
[2]- الحشر: الآية 02.
[3]- الأعراف: الآية 185.
[4]- رواه الترمذي عن حديث أبي هريرة.
[5]- المائدة: الآية 64.

بحسب لوي ألتوسير العلوم كانت بمثابة الأرضية التي قامت عليها الفلسفة. "إنّ الفلسفة لم توجد دائما، إذْ لا يُلاحَظ وجودها إلا في عالم يحتوي على ما نسميه علما أو علوما بالمعنى الدقيق ...

لكي تولَد الفلسفة أو تتجدّد نشأتها، لابدّ من وجود علوم، ولربّما كان هذا هو السبب في أنّ الفلسفة بالمعنى الدقيق، لم تبدأ إلا مع أفلاطون، وقد أدى إلى ذلك وجود الرياضيات اليونانية. ثم قَلَب ديكارت هذه الفلسفة، وكانت فيزياء غاليلي سبب ثورته الحديثة في الفلسفة. ثم عمل كانط على إعادة بناء صرح الفلسفة، وذلك تحت تأثير نيوتن. ثم أُعيدت صياغتها مع هوسرل تحت تأثير نظام البديهيات.